الصحـراء العربيـة
ثقافتها وشعرها عبر العصور
قراءة أنثروبولوجية

الصحراء العربية
ثقافتها وشعرها عبر العصور
قراءة أنثروبولوجية

سعد العبد الله الصويان

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

الصويان، سعد العبد الله

الصحراء العربية: ثقافتها وشعرها عبر العصور، قراءة أنثروبولوجية/ سعد العبد الله الصويان.

٨١٩ ص.

ببليوغرافية: ص ٧٩٧ ـ ٨١٩.

ISBN 978-9953-533-47-6

١. الصحراء العربية ـ تاريخ. ٢. الثقافة العربية. ٣. الشعر العربي. أ. العنوان.

892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للشبكة

الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٥٢٨٥ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١)
فاكس: ٧٣٩٨٧٨ (١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com

الإهـــداء

إلى الدكتور جواد علي

تقديراً لجهوده في توثيق حياة العرب قبل الإسلام

شكر وعرفان

من الصعب تعداد الأيادي البيضاء التي امتدت لتساعدني على إنجاز هذا العمل وخروجه إلى النور سليما معافى. لكن من الواجب علي أولا وقبل كل شيء أن أشكر الرواة الذين قضيت معهم أوقاتا أحسبها من أجمل ساعات العمر وقد فتحوا لي خزائنهم وكنوزهم من المعلومات الثرّة النادرة عن قبائلهم وعن حياة البدو والصحراء والتي كانت سترحل برحيلهم وتندثر لولا أن الله قيض لي الفرصة السانحة لتدوينها. تلك هي المرويات التي تشكل مادة الكتاب الرديف لهذا الكتاب، أعني **أيام العرب الأواخر: أساطير ومرويّات شفهيّة في التاريخ والأدب من شمال الجزيرة العربية مع شذرات مختاره من قبيلة المره وسبيع**. وهناك الوسطاء من شيوخ القبائل ورجالاتها الذين ليسوا من الرواة لكنهم استضافوني ودلوني على الرواة المجيدين وكان لتوصياتهم ووساطاتهم الأثر البالغ في تجاوب الرواة معي. وأخص بالذكر المرحوم مطلق بن عواد العبيكة الذي كان بيته في النسيم منتدا حافلا يؤمه الشعراء والرواة من شمر ومن مختلف القبائل، وكذلك أخيه عبدالكريم في جبه والذي كان بيته بمثابة النُّزل الذي أقيم فيه وألتقي فيه مع الإخباريين والرواة كلما ذهبت إلى الشمال في رحلاتي الميدانية. أما الأمير الشهم مقرن بن عبدالعزيز، الذي كان أميرا لحائل في تلك الفترة التي كنت فيها أتردد على المنطقة لجمع الأشعار والسوالف والأخبار، فإنه لم يتردد لحظة واحدة في تسهيل مهمتي وقد غمرني بما طُبع عليه من حفاوة وكرم.

وهناك الزملاء الذين لهم نفس الاهتمامات والذين قرأوا فصول هذا الكتاب أو بعضا منها وكنت أستنير بآرائهم وملاحظاتهم واستمد من تشجيعهم لي الطاقة اللازمة للاستمرار في العمل حتى تمكنت أخيرا من إكمال المشروع. وأخص بالذكر عبدالعزيز الفهد ومحمد السيف ومشاري الذايدي وسعود القحطاني والأمير فهد بن سعد بن فيصل. وأعتذر لهؤلاء جميعا على الساعات الطوال التي كنت أستلبها من أوقاتهم الثمينة في غمرات الحماس و"الجذب" الفكري التي كانت تنتابني أثناء الكتابة للتحدث إليهم باستفاضة قد تكون مملة أحيانا عن بعض الأفكار والمواضيع المبثوثة في ثنايا الفصول. كما أتقدم بشكر خاص لكل من برنارد هيكل من جامعة برنستون Princeton University وليسا أوكرِفيتش Lisa Ukrevich من الجامعة الأمريكية في الكويت AUK وأُلريكي فريتاغ Ulrike Freitag من مركز برلين لدراسات الشرق الحديث Zentrum Moderner Orient. أما مارسيل كوربرسهوك، رفيقي في متاهات ثقافة الصحراء والعطش الذي لا يرتوي لأشعارها وسوالفها ومغازيها، فأنا مدين له بأمور عملية ووجدانية يصعب حصرها.

وليس كل من قرأ مسودة هذا الكتاب أو أجزاء منها يتفق معي في كل ما طرحته فيه من الأفكار والآراء لذا تبقى مسؤوليتها مرهونة بي لوحدي.

الرياض ٢٠١٠/٢/٢

المحتويات

مقدمة (١٣ - ٢٠)

مدخل أدبي

توطئة: الشفاهي والكتابي في اللغة والأدب (٢١ - ٤٦)
الخلل المنهجي في دراسة الشعر الجاهلي ٢١
النص الشفاهي والنص الكتابي ٢٦
تداخل الشفاهي والكتابي ٣٢
الكتابة والكلام ٣٧

الشعر الجاهلي ونظريات الأدب الشفهي (٤٧ - ٧٨)
نظرية الانتحال ٤٧
نظرية الصياغة الشفهية ٦٠
العمل الميداني عند العرب ٦٦
محدودية الذاكرة ٧٥

طبيعة العلاقة بين الشعر النبطي والشعر الجاهلي (٧٩ - ١١٠)
العلاقة الأدبية ٧٩
العلاقة االتاريخية ٩٢
أوجه أخرى للعلاقة ٩٨
وقع الحافر على الحافر ١٠٤

الشعر البدوي في مقدمة ابن خلدون (١١١ - ١٣٤)
أجناس الشعر البدوي في المقدمة ١١١
الشعر البدوي في المقدمة وقضايا التحقيق ١٢٠
الشعر الهلالي والشعر النبطي ١٢٨

شعر القلطة (الوصف) (١٣٥ - ١٧٢)
النزول إلى الملعبة ١٣٥
استراتيجية اللعب ١٤١
المربّط والمعوسر ١٤٨
من مرحلة الخشونة إلى مرحلة التجديد ١٥٤
نماذج من القلطات ومناسباتها ١٦١

شعر القلطة (التحليل) (١٧٣ - ١٩٨)
الرد والنظم ١٧٣
الرمز في شعر القلطة ١٨٣
الارتجال في الشعر العربي ١٨٩

نظم القصيدة (١٩٩ - ٢٢٦)
الفيض والتدفق ١٩٩
نحت المعاني وترويض القوافي ٢٠٤
تجسيد المعاناة الشعرية ٢١٣
الليل والمرقب ٢١٨
صب الصوت ٢٢٣

الرواية والتداول (٢٢٧ - ٢٧٢)
استقلالية النظم عن الرواية ٢٢٧
الاركاب ٢٣٣
مجالس الشعر ٢٣٧
وظيفة الشعر ٢٤٣
سالفة القصيدة ٢٥١
تدوين الشعر الجاهلي والشعر النبطي ٢٦٣

تداخل التاريخ والأسطورة (٢٧٣ - ٣٢٠)
آليات التحول الأسطوري ٢٧٣
التاريخي كإعادة إنتاج للأسطوري ٢٩٨
نمر ابن عدوان نموذجا للتحول الأسطوري ٣٠٢
موثوقية المادة الشفهية ٣١٦

البداوة والحضارة: تضادية أم تكامل!

البداوة والبدائية (٣٢١ - ٣٤٤)
نقد النموذج الخلدوني للبداوة ٣٢١
استئناس الإبل وظهور البداوة ٣٣١
البعير والفرس: القوة المزدوجة ٣٣٧

ثنائية البدو والحضر (٣٤٥ - ٣٧٢)
النموذج المحلي ٣٤٥
التكامل الاقتصادي ٣٦٠
العقيلات ٣٦٧

ثنائية الرموز (٣٧٣ - ٤٠٢)
الغرس والذود ٣٧٣
الإبل كمركّب ثقافي وموضوع شعري ٣٨١

ثقافة الصحراء (٤٠٣ - ٤٤٨)
الكرم والشجاعة ٤٠٣
نوستالجيا البداوة ٤٣٢

المشهد السياسي (٤٤٩ - ٤٨٢)
تعدد مراكز القوة ٤٤٩
إرهاصات قيام السلطة المركزية ٤٥٧
التحول من القبيلة إلى الدولة ٤٦٤
طَيّ صفحة البداوة ٤٦٨
القبيلة ومتطلبات الدولة الحديثة ٤٧٣

القبيلة: بيولوجيا أم أيديولوجيا!

أيديولوجية النسب القبلي (٤٨٣ - ٥٢٤)
المفهوم الأنثروبولوجي للنسب ٤٨٣
نظرية النسب عند العرب ٤٨٩
النسب العشائري التمفصلي ٥٠٤
النسب والاستنسال: التناظر النموذجي ٥٠٨
العصبية القبلية ٥٢٢

التنظيم القبلي (٥٢٥ - ٥٧٤)
أنساب أم تحالفات ٥٢٥
الانتساب والالتحاق ٥٣٣
الخمسة ٥٣٦
وظيفة النسب ٥٤٧
مشيخة القبيلة ٥٦٠

الحياة القبلية (٥٧٥ - ٦٢٠)
ملكية الأرض ٥٧٥
الحل والترحال ٥٨٣
سالفة وقصيدة للشاعر رضا ابن طارف الشمري ٥٩٦
المناخات والأكوان ٦٠٢

التكيف مع معيشة الصحراء

ذئاب الصحراء (٦٢١ - ٦٥٤)
مهارات العيش في الصحراء: تكيف أم تماهي؟ ٦٢١
الذئب نموذجاً ٦٣٥
خوي الذيب/معشّى الذيب ٦٤٨

الغزو (٦٥٥ - ٦٩٦)
الحنشلة والمعيار ٦٥٥
الغزو ٦٥٩
الغزو والإبل ٦٧٨
من حايف إلى عقيد: شليويح العطاوي نموذجا ٦٨٦

سلوم العرب (٦٩٧ – ٧٣٨)
قواعد الاشتباك ٦٩٧
التدابير والإجراءات السلمية ٧١٤
الثلاث البيض ٧٢٣
الخوي ٧٢٩

القضاء العرفي (٧٣٩ – ٧٩٦)
الإجراءات والمرافعات العرفية ٧٣٩
الكفالة والدخالة ٧٥٦
الوجه والحشم ٧٧١
الحق للقوة ٧٧٩

المراجع (٧٩٧ – ٨١٨)

مقدمة

هذا العمل محاولة للتعامل مع عدد من القضايا والتعاطي معها من زوايا مختلفة لكنها متداخلة ومتكاملة، كل منها تعضّد الأخرى وتدعمها. إنه في الأساس محاولة لربط الحاضر مع الماضي ولكن من جهة قلما تنبّه لها من يدرسون تاريخنا الاجتماعي والثقافي والأدبي واللغوي في الجزيرة العربية. لقد اعتاد الباحثون في محاولاتهم ربط الحاضر مع الماضي أن يركزوا على الثقافة الرسمية التي وصلتنا مدونة في مصادر مكتوبة، دون الالتفات إلى المصادرالشفهية وموروثات الثقافة التقليدية. ومن الواضح أن في ذلك انتقائية مخلة وإقصاء متعمدا لمصدر من أهم مصادر الدراسة والذي قد يكون في بعض النواحي أصدق تمثيلا لواقعنا الثقافي والاجتماعي وصلة حاضرنا بماضينا.

كان البدو حتى عهد قريب يشكلون غالبية سكان الجزيرة العربية، خصوصا في الوسط والصحراء وكانت الشفاهة هي السمة الغالبة على ثقافتهم. لكن التعامل مع مخرجات الثقافة الشفهية يحتاج إلي أطر منهجية ونظرية تختلف عن تلك التي نوظفها للتعامل مع الثقافة الكتابية. لقد ظل العلماء في الأمم المتقدمة منكبين على البحث والتنظير والأخذ والرد في قضايا الأدب الشفهي بينما عالمنا العربي ينعم بالغفلة عن هذا كله، علما بأنه أحوج ما يكون إلى ذلك، ليس فقط لغزارة وتنوع آدابه وأشعاره الشعبية وإنما أيضا لأن مثاله الأعلى في الأدب، وهو الشعر الجاهلي، هو أدب شفاهي. هذا يحتم علينا، كي نتمثل الشعر الجاهلي تمثلا صحيحا ونفهمه حق الفهم، أن نطّلع على النتائج التي توصلت إليها أحدث الدراسات العلمية عن طبيعة المجتمعات الأمية والآداب الشفاهية.

لقد وصلتنا الثقافة الجاهلية كنصوص مكتوبة وهذا ينسينا أنها ثقافة شفهية فنطبق عليها معايير الثقافة المكتوبة والأدب المكتوب واللغة المكتوبة. والذين حفظوا لنا هذا الموروث الجاهلي هم نخبة من العلماء مما جعلنا نتعامل معها كما لو كانت هي ذاتها نتاج نخبوي متناسين أنها في الأصل ثقافة شعبية أنتجتها ذهنيات أمية، فلا نفرق منهجيا بين الأدب الذي أنتجه العصر الجاهلي وبين الأدب الذي أنتجه العصر العباسي مثلا، بعدما تكرست الكتابة كآلية لإنتاج الأدب وبثه ونشره. كما أننا نغفل دور العلماء لاحقا وجهودهم في تقعيد وتنسيق اللغة الجاهلية والأدب الجاهلي ونتعامل مع هذه القواعد لا على أنها فرضيات ونظريات أنتجتها عقليات حضرية في أوج ازدهار الحضارة العباسية، وإنما نتعامل معها كما لو كانت معايير يتقيد بها الجاهليون عن وعي وإدراك حينما يتحدثون أو حينما ينظمون شعرهم. فالجاهليون لم يقيدوا أنفسهم بقواعد سيبويه النحوية ولا ببحور الخليل الشعرية وإنما كانوا يستجيبون لسليقتهم وطبعهم دون وعي بالقواعد التي تحكم إنتاجهم اللغوي والأدبي،

تماما مثلما أن القبائل في تحالفاتها ومناقلات فروعها من قبيلة لأخرى لم تتقيد بما دونه النسابون عن أنساب القبائل الجاهلية.

الخليل بن أحمد هو الذي اكتشف البنية العروضية للشعر الجاهلي مثلما اكتشف اللغويون البنية النحوية للغة الجاهليين ووضعوها لنا في قواعد مكتوبة. لذلك لا تتوهم وتعتقد أن فصاحة لغة الجاهليين وآدابهم كما وصلتنا من خلال المصادر المكتوبة يجعل نتاجهم الأدبي أقرب للأدب المكتوب الذي أنتجته النخب المتعلمة في عصور العربية اللاحقة. الأخطاء التي أوقعنا فيها هذا الوهم هو الذي حال دوننا ودون فهم الأدب الجاهلي على حقيقته من ناحية ودون إدراكنا لأهمية دراسة أدبنا الشفهي العامي من ناحية أخرى وما يمكن أن تقدمه مثل هذه الدراسة من إسهام حقيقي في فهمنا لطبيعة الأدب الجاهلي وفي التعامل مع ما يثار حوله من قضايا وإشكاليات. من خلال دراستنا للشعر النبطي سوف نتعرف على الطبيعة الشفهية للأدب الجاهلي، بما في ذلك آليات التحول الأسطوري. سوف نلاحظ مثلا أن آليات الرواية الشفهية في كلا الموروثين تنزع بطبيعتها نحو الانزلاق لاشعوريا من التفكير الواقعي إلى التفكير الأسطوري ومن السرد التاريخي إلى السرد الملحمي وبذلك يتداخل الأسطوري مع التاريخي.

شفاهية الشعر الجاهلي تجعله أقرب إلى أشعار البدو المتأخرين منه إلى أشعار شعراء الفصحى. شعر البادية وثقافة الصحراء في الجزيرة العربية يمثلان الامتداد الطبيعي والاستمرارية التاريخية لشعر الجاهلية ولغتها وثقافتها. إننا بدراسة شعر البادية نكمل الصورة المبتورة عن الأدب الجاهلي التي تنقلها لنا دواوين الشعر المكتوبة. ونحن حينما نعمق فهمنا للشعر الجاهلي من خلال فهمنا لوريثه الشرعي، أي الشعر النبطي، فإننا أيضا نعمق فهمنا لثقافة العصر الجاهلي. الشعر في الصحراء العربية خلال عصورها الشفهية، منذ العصر الجاهلي وحتى عهد قريب، يتداخل تداخلا عضويا مع مختلف شؤون الحياة. التداخل بين مكونات الثقافة الشفاهية هو انعكاس للبنية الداخلية للذاكرة الشفاهية والذهنية الشفاهية. تميل أنساق الثقافة الشفاهية نحو التداخل والاندماج بحيث أن كلا منها يفسر الآخر ويعزز وجوده، لذا فإنه من الناحية المنهجية لا يجوز لنا أن نطبق عليها معايير الثقافات التحريرية التي تميل أنساقها نحو التمايز والانقسام، من تجزئة الشريط الصوتي المتصل ومفصلته إلى حروف مستقلة أحدها عن الآخر إلى تجزئة الذرة وتقسيمها إلى نيترونات وبرتونات.

إذا كان الشعر انعكاسا لواقع الحياة الطبيعية والاجتماعية فإن تفسيره يتحول في نهاية المطاف من مجرد عمل لغوي إلى عمل ثقافي متكامل، إلى رصد إثنوغرافي شامل لثقافة المجتمع الذي أنتج هذا الشعر والذي هو بدوره مرآة تعكس مجتمع البادية وثقافة الصحراء. لذا يصبح الحديث عن مضامين الشعر وصوره ومعانيه

حديثا عن مضامين الثقافة ومركباتها ومكوناتها، مادية وعقلية ونفسية. ومن هنا يصعب فصل المباحث اللغوية والأدبية عن المباحث الاجتماعية والثقافية. على هذا الصعيد من الرؤية والفهم يتضافر الشعر الجاهلي مع الشعر النبطي ليشكلا مادة إثنوغرافية واحدة وتتآلف القصيدة النبطية مع القصيدة الجاهلية لترسمان صورة متكاملة لثقافة الصحراء العربية على مر العصور، وسيتبين لنا أنه مثلما أن الشعر النبطي يمثل امتدادا طبيعيا للشعر الجاهلي فإن ثقافة الصحراء العربية في عصورها المتأخرة تمثل امتدادا طبيعيا لثقافة المجتمع الجاهلي. من هذا المنطلق فإنه بقدر ما ننادي بدراسة الشعر النبطي من أجل فهم أعمق للشعر الجاهلي ننادي كذلك بدراسة ثقافة صحراء الجزيرة في الحقب المتأخرة من أجل إضاءة جوانب لا زالت تخفانا في الحقبة الجاهلية. سوف يتضح لنا مدى إمكانية سد الثغرات المعلوماتية في أي من الحقب المتتالية في تاريخ الصحراء العربية عن طريق اللجوء إلى ما هو متوفر من معلومات عن الوضع في الحقب الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك كله ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي الذي تفرقت منه الشعوب السامية، وأن قبائل البدو العربية تمثل النموذج الأولي لحياة الساميين القدماء، لذا فهي تحتل مكانا بارزا في الدراسات التاريخية والمقارنة التي تتعلق بعادات الساميين وديانتهم وثقافتهم المشتركة.

قصة البداوة، قصة درامية طويلة استمرت في جملتها لمدة تربو على ألفي سنة، إنها قصة كفاح البدوي منذ مرحلة استئناس البعير، أي قبل العصور الجاهلية، وحتى العصور المتأخرة ليقهر الصحراء ويتعايش معها ويألفها كما تألفها الوحوش. إنها قصة تجربة إنسانية فريدة في التكيف والبقاء تستحق التوقف والرصد والتوثيق والتحليل. سوف يتبين لنا من خلال هذه الدراسة مدى أهمية الدور المحوري الذي لعبته الإبل في تشكيل ذهنية ابن الجزيرة العربية وثقافته كعنصر أساسي في تكيفه مع طبيعة الصحراء. لو دققنا النظر في الأدب البدوي، شعرا ونثرا، من عصر الجاهلية حتى العصور المتأخرة، لوجدناه في معظمه توثيقا لهذه المغالبة المستمرة والكفاح المتصل بين الإنسان والطبيعة الصحراوية والذي يتم التعبير عنه بطرق مختلفة وبصور مبطّنة.

لذا فإنني أطمح أيضا إلى أن يسهم هذا العمل في تصحيح الصورة المشوهة التي تحملها النخب العربية في أذهانهم عن التنظيم القبلي وطبيعة الحياة البدوية وقيم الثقافة الصحراوية وعن حقيقة العلاقة بين البدو والحضر في الجزيرة العربية. إننا غالبا ما نتبنى دونما نشعر وجهة النظر الحضرية وتحيزاتها ضد القبيلة ونردد أنه حالما تضمحل سلطة الدولة فإن الفوضى تحل محلها ويبدأ البدو أعمال السلب والنهب ويغيرون على القرى ويفرضون عليها الأتاوت. إدانة هذه الأوضاع وشجبها أقرب إلى أقلامنا من محاولة فهم الآليات التي تحركها والظروف التي تستدعيها

والمنطق الذي يحكمها. علينا دوما أن نتنبه إلى هذه التحيزات ضد البدو وأن نتجاوز التابوهات التي تغلغلت في أذهان الحضر من خلال طبيعة حياتهم المستقرة ونظمهم التعليمية وبلورتها الكتابة على شكل نصوص ومدونات تتراكم عبر العصور مما يمنحها البقاء والاستمرارية والقوة الأخلاقية والمرجعية. علينا أن نفهم الثقافة الشفهية البدوية فهما حقيقيا من داخلها ووفق شروطها هي حتى نتمكن من رؤية العالم بعيون بدوية.

سوف أتعامل في هذا الكتاب مع الشعر الجاهلي والشعر النبطي على أنهما يمثلان إرثا أدبيا واحدا متصلا يعبر عن حس جمالي مشترك وعن رؤية كونية مشتركة ويعكس استمرارية ثقافية ممتدة لم تنقطع عراها من عصور الجاهلية حتى عصورنا المتأخرة التي لا زال البعض منا يتذكر بعض ملامحها. ليس عندي أدنى شك بأن الشاعر الجاهلي لو قابل شاعرا نبطيا فإن كلاهما سوف يفهم ما يقوله صاحبه ويطرب له ويؤمّن على مضمونه حتى لو أعيته لغته إلى حدٍّ ما، وهي لن تعييه كثيرا لأن الفروق في غالب الأحيان لا تعدو أن تكون فروقا في طريقة لفظ المفردة، وهذا أمر من السهل تجاوزه وبسرعة. وقد سبق لي أن افترضت أن الشنفرى أو عروة بن الورد أو ذو الرمة لو قدر لأي منهم وبُعث في القرن الماضي أو ما قبله لما وجد عنتا في أن يمتطي ذلوله ويستجنب فرسه ويمدّ غازيا مع شليويح العطاوي أو مع ساجر الرفدي واستمتع بمحادثة هؤلاء الأعراب وشاركهم الحداء واستعذب مقارضتهم الشعر واستحسن سوالفهم وفضل شعرهم على كثير مما يقال الآن من شعرٍ بالفصحى.

المنهج التزامني synchronic approach الذي أتبناه في هذا العمل في التعامل مع الشعر الجاهلي والشعر النبطي على أنهما موروث شعري واحد يأتي ليتكامل مع المنهج التاريخي التتابعي diachronic approach الذي سبق أن بدأته في كتابي **الشعر النبطي: ذائقة الشعب وسلطة النص** (٢٠٠٠) والذي حاولت فيه أن أتتبع بالتفصيل مراحل انتقال الشعر في بادية الجزيرة العربية من النمط الكلاسيكي إلى النمط النبطي وأوضح كيف تحولت لغته من الفصحى إلى العامية. هذا العمل الذي بين يدي القارئ يهدف إلى التأكيد على أن العلاقة بين الشعر الجاهلي والشعر النبطي لا تنحصر فقط في الجوانب اللغوية والأدبية، والتي سبق وأن فصلنا القول فيها في العمل المشار إليه، وإنما تتعدى ذلك لتشمل كونهما نتاج بيئة طبيعية واحدة وانعكاسا لثقافة صحراوية رانت على الجزيرة العربية وامتدت من عصر ما قبل الإسلام وحتى بداية القرن العشرين.

وحيث أن المرتكزات التي يقوم عليها هذا العمل وتنطلق منها مجمل طروحاته هي المادة القولية المتمثلة في النصوص الأدبية، نثرية وشعرية، جاهلية ونبطية، فإنه كان لا بد من البدء بتشخيص هذا الموروث القولي كمادة شفهية لها خصائصها التي

تميزها عن النصوص التحريرية ثم معايرة قيمتها وإلى أي مدى يمكن الركون إليها كمرآة تعكس الواقع الثقافي والاجتماعي. وهذا ما انصرف إليه الجهد في الفصول الأولى من الكتاب، إضافة إلى لفت النظر أولا إلى مختلف أوجه العلاقة التي تربط الشعر النبطي بالشعر الجاهلي من أجل تسويغ التعامل مع هذا الإرث الجاهلي والنبطي كإرث شعري واحد. كما تحاول الفصول الأولى أن توضح تطبيقيا كيف يمكن الاستفادة من علاقة الشعر النبطي بالشعر الجاهلي من أجل استخدام النبطي الذي نعرفه جيدا وهو ألصق بنا زمنيا لإضاءة الجوانب المعتمة في فهمنا للشعر الجاهلي.

باختصار، هذا الكتاب عبارة عن رصد وتحليل للتاريخ الشفهي في الجزيرة العربية بأبعاده اللغوية والأدبية والاجتماعية والثقافية (بالمعنى الأنثروبولوجي للثقافة) وعلاقات القبائل ببعضها البعض وعلاقات الحاضرة بالبادية والدولة بالقبيلة عبر العصور، ومن ثم محاولة ربط الحاضر بالماضي والشعر النبطي بالشعر الجاهلي، ولكن وفق منهجية فكرية محايدة لا تتبنى بالضرورة الخط الرسمي والسائد، وليس ذلك من باب الاعتراض على الخط الرسمي والسائد، وإنما رغبة في الموضوعية والحيادية والفهم الصحيح لهذه القضايا الشائكة والملتبسة، وبحثا عن الحقيقة العلمية المجردة بعيدا عن أي توجهات أو مواقف مسبقة.

الكتاب ليس فيه تحد سافر لأي سلطة أو مؤسسة من أي نوع. إنه فقط إعادة نظر في بعض "المسلمات" و"الثوابت" من خلال رصد إثنوغرافي وتحليل أنثروبولوجي واجتماعي لحركة الأدب الشفهي ممثلا بالشعر النبطي (البدوي) والتاريخ الشفهي (السوالف) كما يحكيها الرواة الشفهيون من أبناء القبائل والبدو ولفت النظر إلى شرائح مهمشة وصفحات منسية من تاريخنا الاجتماعي الممتد لعدة قرون من خلال العرض والتحليل والنقد. ولا أعني بالمسلمات والثوابت أمور تمس السلطة أو الدين أو الجنس أو أي من المحرمات أو المحضورات وإنما قضايا تتعلق بمركبات الثقافة وبنية المجتمع ومفاهيم القبيلة والدولة والبداوة والحضارة والشعبي والرسمي والعامي والفصيح، ومحاولة تفكيك هذه القضايا والمفاهيم الثقافية والاجتماعية الشائكة والمتشابكة وما يتعلق بها من ملابسات وسوء فهم. لكن لو أخذنا الدولة والقبيلة والمجتع بمختلف شرائحه وأطيافه وتياراته الفكرية والأيديولوجية لوجدنا أن كل طرف من هذه الأطراف وعبر كل العصور كان له روايته التي تتسق مع رؤيته، وكل طرف يحاول أن يصادر الحق في كتابة التاريخ ويستأثر بتدوينه من وجهة نظره هو فقط وبما يلمّع صورته ويدفع بقناعاته ويخدم مصالحه حصريا. لذلك فإن ما نقدمه هنا قد يتعارض، دون أن نقصد ذلك، مع ما حاولت أو تحاول بعض الجهات تمريره وتكريسه. التثبيت الكتابي الموضوعي للتاريخ الذي يهدف إلى الرصد الحيادي دون خدمة مصالح معينة مهمة محفوفة بالمتاعب في أي دولة ناشئة تتلمس

طريقها نحو إعادة تشكيل هويتها وبلورة قيمها وترتيب أولوياتها، خصوصا في مجتمع يتعرض لمختلف التيارات والتجاذبات ويمر بتحولات جذرية ويريد لتاريخه الشفهي أن يبقى عائما دون تثبيت كتابي ليتمكن من الاستمرار في إعادة توظيفه وتشكيله وإعادة رسم خارطته الاجتماعية وفق مستجدات الظروف المتغيرة ومتطلبات كل مرحلة. وهذا أمر مفهوم وله مبرراته من وجهة النظر السلطوية وصراع القوى، لكنه يجعل من مهمة الباحث الموضوعي مهمة صعبة حيث تتحول الكثير من القضايا مهما بدت بسيطة وبريئة إلى قضايا قابلة للتفجّر وسوء الفهم، سيما أن مجتمعنا يتألف من قبائل وثقافات فرعية متعددة ومتداخلة ومن مناطق متباعدة كل منها كان في الماضي يشكل كيانا سياسيا مستقلا.

يثير هذا الكتاب قضايا ملحة تشكل مدار حديث لا ينقطع في معظم المجالس، قضايا سوف يضل النقاش حولها مستمرا لعقود قادمة لأنها من صميم هموم الناس، إنها مخزونات الوجدان ومكنونات اللاوعي ومكونات الوعي على المستويين العام والخاص. فأنا أحاول هنا أن أقدم أدوات تحليلية تساعدنا على إعادة النظر في معطيات واقعنا المعاش لفهمه بعقلانية والتعاطي معه بصورة أفضل. لقد سئم الناس من طرح مواضيع الثقافة التقليدية والأدب الشفهي والتاريخ القبلي بشكل مبتذل في وسائل النشر والإعلام وصاروا يتطلعون لمقاربات جادة تشفي غليلهم وتروي تعطشهم لمعرفة ماضيهم وثقافتهم بشكل غير موارب يتحرى الصدق ويحترم العقول.

ختاما لا بد من التأكيد على أنني لا أدعي إطلاقا أن النتائج التي توصلت إليها أو الآراء التي أطرحها حول القضايا التي أتعاطى معها في هذا العمل هي صحيحة أو نهائية بأي شكل من الأشكال، وأقر بأنني لم أتمكن من الوصول إلى ما كنت أطمح له من إضاءة جوانب لا يزال يكتنفها الغموض ومن الربط بين مسائل لا تزال معلقة. هذه مجرد اجتهادات مبدئية ووجهات نظر أولية قابلة للأخذ والرد على كل المستويات. إن كان هناك من ميزة لهذا العمل فهو أنه يدشن منهجية جديدة تتكئ على مستحدثات العلوم الإنسانية والاجتماعية في التعامل مع موروثنا الثقافي والاجتماعي ومع ذخيرتنا التاريخية والقولية، منهجية تحاول أن تتخطى الظواهر السطحية إلى ما هو أعمق وأقرب إلى الحقيقة، منهجية تعتمد الربط المنطقي والتحليل النظري بحثا عن البُنى الذهنية والآليات المستترة والأسباب الكامنة التي تقبع وراء الظواهر المحسوسة وأحداث المعاش اليومي ووقائع التاريخ العابرة. إنها محاولة للبحث عن علاقات وعن معاني لظواهر تبدو على السطح وكأنها لا علاقة بينها ولا معنى لها، أو أن علاقاتها ومعانيها يساء فهمها وتحرف عن أصلها.

ولقد أكثرت، ربما لدرجة المبالغة، من إيراد الشواهد الشعرية والنثرية من المرويات الشفهية والنصوص الشعبية، وذلك من أجل أن يتعرف القارئ على كيفية التعامل مع هذه المرويات والنصوص واستحلابها كشواهد لا على قضايا لغوية

وأدبية فقط وإنما أيضا على قضايا تاريخية واجتماعية وثقافية.

بقيت هناك بعض الملاحظات التي نود أن ننبه القارئ لها فيما يتعلق بنص الكتاب والتي نجملها فيما يلي:

١/ يرد في الكتاب كم زاخر من المرويات الشفهية، شعرا ونثرا، من رواة أمينين نقلناها بلهجاتهم الأصلية وفق قواعد إملائية في كتابة اللهجات يجدها القارئ مفصلة في كتابينا (صويان ٢٠٠٠: ١١١–٢٧) و (Sowayan 1992: 46-72) وفي مقدمة كتاب لنا تحت الإعداد عنوانه **أيام العرب الأواخر: أساطير ومرويّات شفهيّة في التاريخ والأدب من شمال الجزيرة العربية**. ونحيل القارئ إلى هذا الكتاب الأخير للمزيد من المرويات الشفهية. كذلك يمكن للقارئ الرجوع إلى كتابنا **ملحمة التطور البشري** (تحت الإعداد) لمعرفة المزيد عن أنساق القرابة ونظم الاقتصاد ومفهوم السلطة في المجتمعات البدائية والتقليدية، وغير ذلك من القضايا النظرية التي تتقاطع مع أطروحات هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ.

٢/ إذا لاحظ القارئ في الاقتباسات العامية ما يخالف قوعد الفصحى في النحو والإملاء ولكن وفق استخدام مطرد في كل الكتاب فليعلم أن هذه قاعدة اتخذناها بما يتفق مع طبيعة هذه النصوص الشفهية وطريقة نطقها. فالأسماء والمصطلحات العامية الشائعة مثلا درجنا على كتابتها وفق نطقها العامي، كأن نكتب "وضحا" بدلا من "وضحاء" أو "سالفه" بدلا من "سالفة"، ومثلها "الروله"، "عنزه"، وهكذا. كذلك كلمة "بن" التي ترد معترضة بين الأسماء العامية كتبناها "ابن" نظرا لأن العامة يحققونها كما لو كانت مهموزة ولأن حذفها في الشعر مثلا قد يؤدي إلى خلل في الوزن.

٣/ أحيانا قد يُفصل حرف العطف "و" عن الكلمة اللاحقة، خصوصا الكلمات المقوّسة أو العامية حتى لا يحدث لبس فيظنها القارئ حرفا من أحرف الكلمة.

٤/ إذا ورد بيت الشعر مفردا في محل استشهاد عابر فإنه يكتب أحيانا مع الكلام وليس في سطر مستقل.

٥/ ترد في الكتاب الكثير من الاقتباسات من مراجع لمؤلفين من العامة وأشباه العامة –مثل منديل الفهيد ومحمد العبيد– التي لا تتقيد بقواعد الفصحى في النحو والإملاء ولم نصحح لغتها لأنه ليس من أمانة النقل التعديل في النص المنقول.

٦/ كذلك لم نشأ أن نقيم وزن الأبيات مختلة الوزن إذا وردت كذلك في المصدر.

ختاما لا بد من الإشارة إلى أن المناداة بدراسة الآداب الشفاهية لا تعني إطلاقا الدعوة إلى العامية، ولا أن دراسة البداوة والتنظيم القبلي تعني المناداة بالنكوص إلى عصور البداوة والقبلية. إننا ندرس هذه المواضيع كجزء من تاريخنا الثقافي والاجتماعي وكأحد محددات هويتنا وتصوراتنا الجمعية التي لا تزال رواسبها توجه سلوكياتنا على مستوى اللاوعي. ثم إنها تبقى جزءا من المنتج الإنساني والتجربة الإنسانية التي يحرص العلم على رصدها وتوثيقها، فهي لا تقل أهمية عن اللُّقَى

والحفريات الأركيولوجية التي لا تزال محتفظة بقيمتها كمادة علمية بالرغم من مرور آلاف السنين عليها وانقراض الجماعات التي خلفتها مطمورة تحت الإرض. إذا كان من المشروع علميا أن ندرس الثقافة البابلية أو ثقافة البيرو أو الإنكا أو سكان أستراليا الأصليين أو الهنود الحمر وأن ندرس اللغة السومرية والكتابة المسمارية والهيروغليفية فإنه من المشروع أيضا دراسة الشعر البدوي والقبائل العربية وثقافة الصحراء.